السلطان عثمان الثاني

(الشاب)

فترة الحكم: ١٦١٨– ١٦٢٢

السلطان العثماني السادس عشر

الألقاب والأسماء الشعرية: الشاب، الشهيد، فارسي

اسم الأب: أحمد الأول

اسم الأم: ماهفَيروز سلطان

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،

٣ نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٦٠٤

العمر عند اعتلاء العرش: ١٤ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: الاستشهاد،

٢٠ مايو/أيار سنة ١٦٢٢

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول– يقع قبره بالقرب من قبر أبيه السلطان أحمد الأول عند مسجد السلطان أحمد

أبناؤه: عمر ومصطفى

بناته: زينب سلطان

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان عثمان الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

السلطان عثمان الثاني هو أكبر أبناء السلطان أحمد الأول الذي سماه باسم عثمان غازي، أول السلاطين العثمانيين. ووفقا للتغيرات الجذرية في إجراءات الخلافة على العرش، اعتُرف بعثمان الثاني وأُعلن أنه السلطان الجديد وهو في الرابعة عشرة من عمره بناء على رغبة رجال الدولة بسبب عدم قدرة عمه مصطفى الأول على الحكم.

تلقى السلطان عثمان الثاني تعليما ممتازا، وكان يتصرف بحكمة ويدعم التجديدات في جهاز الدولة بأسلوب أكثر حكمة مما كان متوقعا بالنسبة لسنه الصغيرة. ويُعيد اعتلائه العرش، أكد عثمان الثاني سلطته من خلال إقالة أتباع مصطفى الأول من وظائفهم بالإضافة إلى رجال الدولة ومعلمه الروحي ومستشاره الذي أوصله للعرش أيضا. وقد حاربت الدولة العثمانية ضد فارس الصفوية والمملكة البولندية خلال عهده.

وفي الوقت الذي كانت تقام فيه مراسم اعتلائه العرش كان الصدر الأعظم خليل باشا القيصري يسير بحملة ضد فارس الصفوية؛ حيث كان الجيش الصفوي قد هزم قوات خان القرم في سهول سيراف، وقام الخان بدمج قواته مع قوات الجيش العثماني في ١٠ سبتمبر/أيلول عام ١٦١٨، وتوجه خليل باشا نحو مدينة أردبيل حيث كان الشاه عباس موجودا هناك. وكانت معاهدة سيراف، التي أُبرمت ردا على عرض الشاه عباس في ١٦١٨، قد نصّت على تخفيض كمية الحرير المقررة بموجب معاهدة نصوح باشا والتي يدفعها الصفويون للعثمانيين كجزية سنوية إلى النصف. ورغم موافقة السلطان الشاب على المعاهدة فإنه أقال خليل باشا وعين "داماد كارا محمد باشا" مكانه، بسبب عدم فعاليته أمام الصفويين.

كانت هناك علاقات ودية بين العثمانيين والمملكة البولندية، لكن بولندا – التي دخلت تحت وصاية الدولة العثمانية على يد الصدر الأعظم محمد سوكولو باشا (توفى سنة ١٥٧٩) – تدخلت الآن في الشؤون الداخلية لمولدافيا المجاورة لها، وهي أرض عثمانية وضعت بولندا عينها عليها. وعلاوة على ذلك كانت بولندا تشجع وتدعم بقوة القوزاق الذين كانوا يعتدون على الأراضي العثمانية في المنطقة الشمالية للبحر الأسود. وبالتالي تدهورت العلاقات العثمانية البولندية لتصل إلى حالة القتال التي تمثلت في دعوة الصدر الأعظم الجديد علي كُوزَلْجَه باشا عام ١٦٢١ إلى الحرب ضد مملكة بولندا.

وخلال فترة حرب الثلاثين عاما التي شغلت جزءا كبيرا من أوروبا المسيحية قاد السلطان عثمان الثاني الجيش العثماني بنفسه بهدف إحياء العصر الذهبي للدولة العثمانية.

وقام الجيش العثماني بمحاولة فاشلة للاستيلاء على حصن خُوتِين على سواحل نهر دنيستر على الحدود الشمالية لمولدافيا. وفي مواجهة التعزيزات القوية التي كانت تغزز الجيشين البولندي والقوزاقي فشلت كثير من الغارات التي قادها عثمان الثاني. ورأى السلطان أن قوات الانكشارية تقاتل بتردد وأن الشتاء يقترب سريعا، ولذلك استجاب لعرض ملك بولندا السلام، والذي كان في مصلحة العثمانيين، ووقع البلدان معاهدة خوتين عام ١٦٢١. وقد أعطت تلك المعاهدة حصن خوتين لأمير مولدافيا حليف الدولة العثمانية.

استدعى السلطانُ زوجتَه "عائشة سلطان" وابنه عمر وهو في أدرُنه، لكن الأمير عمر توفي عندما أصيب برصاصة خلال الاحتفالات بنصر خوتين التي أمر السلطان بإقامتها بناء على طلب زوجته عائشة سلطان.

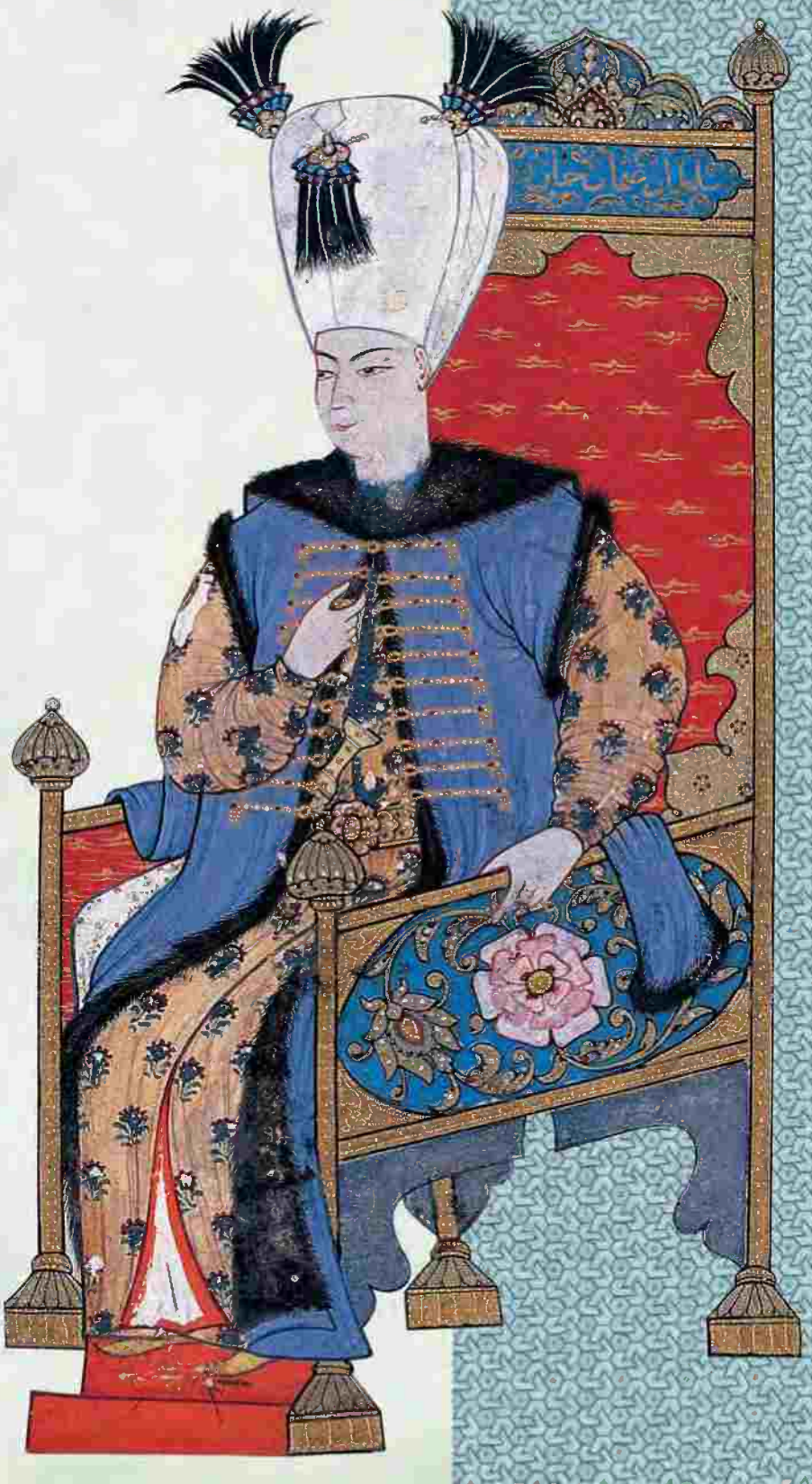

لوحة بفن المنمنمات تصور السلطان عثمان الثاني وهو جالس على العرش

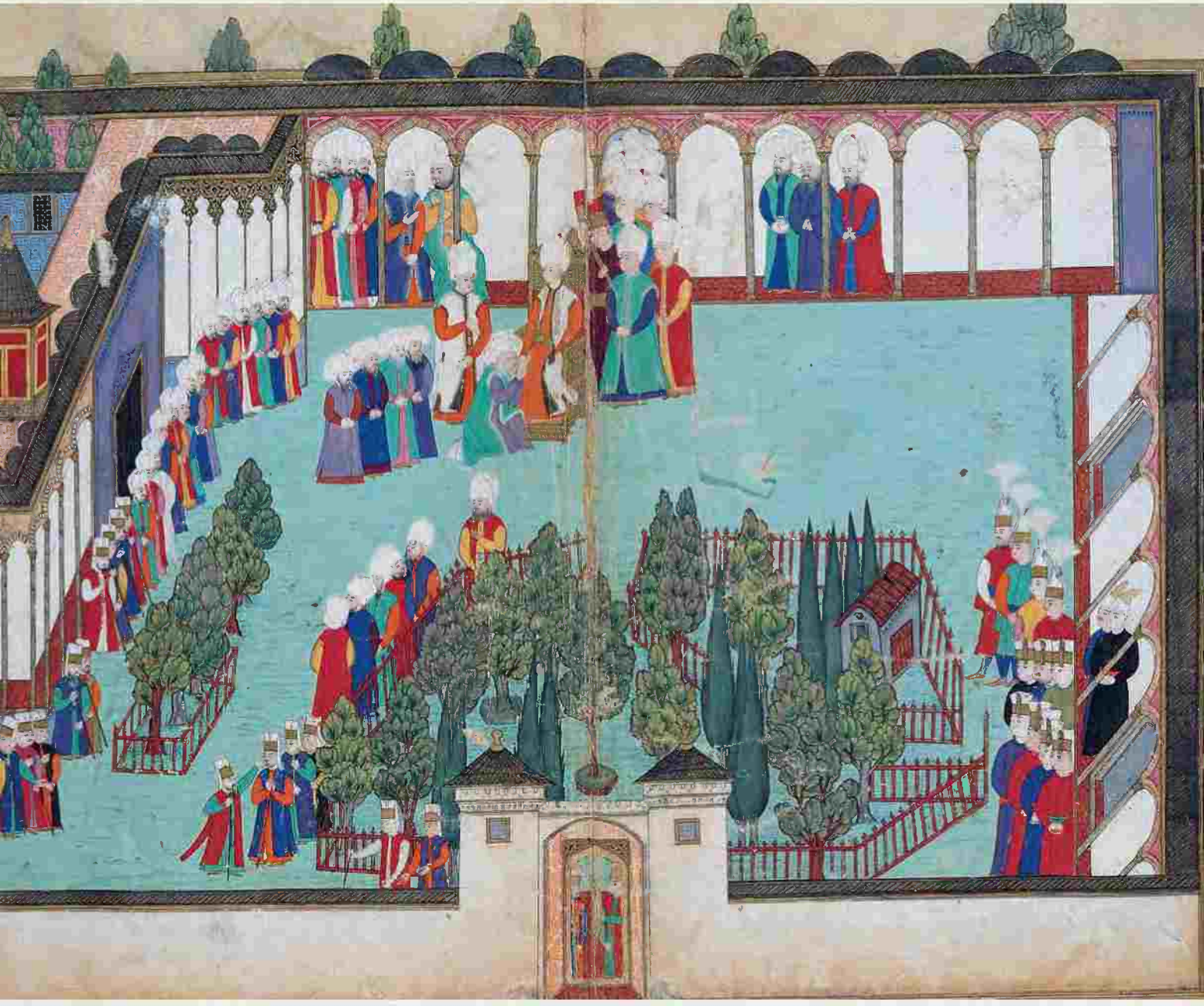

لوحة يفن المنمنمات تصوّر الاحتفال بصعود السلطان عثمان الثاني إلى العرش.

حاول السلطان عثمان الثاني تنفيذ منظومة واسعة من الإصلاحات لوقف انحدار الدولة العثمانية. وكان يعتقد أن سبب جمود الدولة هو رجال الدولة المنتخبين بطريقة "دَوْشِيرمه"[٢٤] الذين كانوا يتساهلون مع الرشوة ومحاباة الأقارب ويتجاهلون حالات قصور إدارية واضحة. ولكي يضمد جراح الدولة فكر السلطان في الاستغناء عن موظفي البلاط المنتخبين بطريقة "دوشيرمه"من فيلق الانكشارية ليحل محله جيش جديد من سكان الأناضول، كما فكر أيضا في نقل عاصمة الدولة من إسطنبول إلى الأناضول.

وصلت الشائعات سريعا إلى الانكشارية حول ما ينويه السلطان من إلغاء فيلق الانكشارية نتيجة لعنادهم، الذي ظهر خلال حملة خوتين، وتجنيد جيش جديد. وكان لإعلان خروج السلطان إلى سوريا لقمع تمرد واسع في لبنان ثم ذهابه إلى مكة للحج تداعياتٌ أكبر. وكان فيلق الانكشارية في حالة من الغضب العارم حيث صدقوا الشائعات التي كانت تقول إن السلطان يستعد للتحرك ضدهم. وانتشرت شائعات أخرى تقول إن السلطان سوف يختار جنودا من الأناضول وسوريا ومصر لمهاجمة فيلق الانكشارية المتمرد. ووفقا للمصادر فقد كان اختيار السلطان تأدية صلاة الجمعة في مسجد السلطان سليم قبل ذلك التمرد الكبير لقوات الانكشارية علامةً على أن السلطان سوف يكون في طريقه قريبا إلى سوريا ومصر، تماما كما فعل السلطان سليم الأول الذي أبحر جنوبا في نهر الفرات إلى سوريا ومصر. وأدت موجة الإشاعات المتنامية إلى تمرد الانكشارية بعد ذلك بقليل، وأيد العلماءُ الانكشارية لأن العلماء باتوا مبتعدين أيضا عن السلطان.

رفض السلطان عثمان الثاني بشدة طلب الانكشارية تسليم بعض رجال الدولة، وقرر في تلك اللحظة مقاومة فيلق الانكشارية. وعندما اقتحم المتمردون قصر "طوب قابي" وأعلنوا أن مصطفى الأول هو السلطان،

---

(٢٤) كانت "الدَّوْشِيرْمَة" وحدة عسكرية عثمانية تتألف من صبيان يتم تجنيدهم من بين السكان المسيحيين في ريف الروملي عالبا. وكان هؤلاء الصبيان يكبَرون ويتعلمون المعتقدات والممارسات الدينية الإسلامية، ويتلقون تعليما كاملا يشمل مجالات عديدة منها القانون، والعلوم المختلفة، والألعاب الرياضية، والمهارات الإدارية. ثم بعد ذلك يلعبون جميع أنواع الأدوار في الدولة، وبخاصة في المؤسستين العسكرية والملكية حيث يصبحون موظفين بالبلاط السلطاني. وكان أكثر هؤلاء ذكاء يحصل على تعليم شامل لسنوات طويلة بما يتفق مع المعايير الأكاديمية الصارمة في مدرسة أندرون (الجزء الداخلي من قصر السلطان) داخل قصر "طوب قابي" حيث يتمكن الطلاب الأكثر قدرة من الوصول إلى أعلى مركز في الدولة وهو مركز لصدر الأعظم مثل يلتحي محمد باشا وقرة داود باشا وسنان باشا. أما الذين دخلوا الجيش، فكانوا يمرون أيضا بفترة تدريب تحت نظام صارم في مدارس الطلاب العسكريين. وبعد أن يتلقوا تعليما عسكريا صارما، ينضمون لفيلق النخبة من المشاة المستديمة، والذي يسمى الانكشارية. وكان أفراد الانكشارية يتقاضون رواتب ثابتة ويتمتعون بمستوى معيشي مرتفع ومكانة اجتماعية محترمة. ولكن في القرن السابع عشر فَقَدَ نظام الدوشيرمة وظائفه تدريجيا بسبب الفساد المتنامي بين أفراده. وأصبحت الانكشارية أقل فعالية في ساحات المعارك، وشاركت في التمرد، وأعاقت جهود تحديث هيكل الجيش.

أصبح من الواضح أن الجهود الكبيرة التي بذلها شيخ الإسلام أسعد أفندي، والد زوجة عثمان الشاب، لإنهاء التمرد ومنع اعتلاء السلطان السابق مصطفى الأول العرش مرة أخرى قد باءت بالفشل. وحتى رضوخ عثمان الثاني في نهاية المطاف لمطالب المتمردين وتسليمه لرجال الدولة المطلوبين لم ينقذ الموقف. ثم لجأ عثمان الثاني إلى علي باشا قائد فيلق الانكشارية وطلب منه إرضاءهم، فردت الانكشارية على قائدها بقتله بطريقة وحشية. اعتقل فيلق الانكشارية السلطان عثمان وأهانوه ثم قدموه للسلطان مصطفى الأول في عام ١٦٢٢. وبعد ذلك سجنوه وأعدموه في زنزانات الأبراج السبعة. وبذلك كان عثمان الشاب أول سلطان عثماني في التاريخ يغتاله جنوده.

كانت مواطن النقص في عثمان الثاني تكمن في قلة خبرته باعتباره سلطانا صغير السن، وطبيعته القاسية، وعدم قدرته على معالجة القضايا بهدوء ورباطة جأش. ونتيجة لظهوره كثيرا بين العامة بملابس عادية وغاراته المفاجئة على الحانات، فقد عثمان الثاني سمعته في عيون الجنود والمثقفين والعامة. وقد كافح من أجل تقنين جملة من الإصلاحات الأساسية من أجل إحياء الإمبراطورية على غرار عصري السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني. كما سعى إلى تنظيم الجيش فكان يفتش سرا على الجنود وهو متخفٍ ولم يكن يتردد في معاقبة من كان يضبطه مذنبا. وكان شاعرا مطبوعا كتب قصائد رائعة مستخدما اسم "فارسي". كما كان شغوفا بالرياضة وفارسا وراميا رائعا.

منظر عام لشبه جزيرة إسطنبول التاريخية خلال العهد العثماني